

كتابه « واجملنا للمتقين اماماً » يريد ان يقتدى به وان معك اهل ذمة
وعهد وقد اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم واوصى بالقبض فقال
« استوصوا بالقبض خيراً فان لهم ذمةً ورحماً » ورحمهم ان ام اسماعيل منهم .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقتة فانا
خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو ان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم
لك خصماً فانه من خصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه
الامة وآنست من نفسي ضمناً وانتشرت رعيتي ورق عظمي فاسأل الله
ان يقبضني اليه غير مفترط . والله انى لأخشى لو مات جمل بأقصى عمك
ضياًعاً ان اسأل عنه يوم القيامة »

فانظروا أيها المسلمون وتأملوا سيرة سلفكم الذين ملكتم بهم الأرض
وكيف اكل خاتمهم الاموال وظلموا اهل الذمة والمعاهدين حتى دالت لهم
الدولة مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم « اذا ظلم اهل الذمة اُدبِل للعدو »
أى عادت لهم الدولة

باب التغيير والتحليل

(الصحة في تغيير الهواء . وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغراء) (*)

(٣٥) من هيلانه الى ارسم في ٢٠ يونيو سنة ١٨٥٠

كان « اميل » عيلاً وكنت مشفقة عليه في بداية مرضه من الحمى
الحصية ولكنه لم يصب بالحصبة والسبب في عدم اخبارك بذلك هو ان

(*) معرب من باب الولد من كتاب اميل القرن التاسع عشر

الدكتور كان قد تعهد بان يكشفك بسير المرض ثم انه لما لم يجد فيه ادنى خطر عليه رأى من العبث ان يوقظ ما نام من همومك ويحرك ما سكن من دواعي قلقك ولقد عجبت اليه المافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة وثابت اليه أوابد القوى واما انا فكان شأني غير ذلك لأن ما قاسيته من التعب في ليالي سقمه التي لازمت فيها السهاد وما كان يساورني فيها من الحزن والاشفاق قد تزعرعت له صحي ووهت به عافيتي وللطب الانكليزي في مثل حالي هذه دواء لا بد ان يكون هو سيد الادوية على ما ارى وسندي في هذا الرأي ما اراه من ثقة الاطباء به في وصفه لمرضهم ومن اذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم وهذا الدواء هو تغيير الهواء

نعم ان الهواء الذي نستنشقه في مراريون جيد غير ان اخص ما يعول عليه اطباء الانكاز في ايصائهم المرضى بتغيير الهواء لتجديد قواهم انما هو الانتقال من مكان الى آخر والنظر في مجالي الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم واني والحق اقول قد اعجبت بهذا الرأي بعض الاعجاب لاني اعلم ان ضواحيننا التي يتوارد عليها السباح كثيراً غاصة بضروب المحاسن الحقيقية ولهذا السبب لم اعارض في هذا الرأي بل اذعنت له اذعان المريض المطيع الذي يجمل احكام العلم ويكبرها .

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية فان السيدة وارنجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت بان تُشرع لنا طريق السير وسقط قوبيدون على مركبة عميقة من المركبات المكشوف مقدمها صرت عليها ايام كانت فيها اسعد حالا باصحابها وعلى فرس مُنكّر (كبير السن)

لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة ما يقدره على احتمال مشاق الصعود
والهبوط في انجاد هذه الجهة واعوارها الكثيرة فاستأجرناهما باجرة قليلة
وفي صبيحة يوم ظعننا استوى الزنجي البار على كرسي المركبة استواء السائق
المختال المعجب بنفسه

كان وجه « اميل » وقد زال شحوبه وعاد اليه لونه يتلألأ فرحاً
ويزهر بشراً وطلاقة لانه لا شيء يابذ للاطفال كتوقع الحوادث ولكننا
لم نصادف في طريقنا شيئاً منها نقص عليك حكايته فلم نلاق سلباً ولا وحوشاً
ولا اسارى مقيدين في مغارات الصخور مع اننا قد جينا ارضين مقفرة
تحتها سواحل خلة مهجورة معرضة لجميع ما يطراً من ضروب هياج
البحر وطغيانه

لم يكن خروجي الى التنزه لمحض التداوي بتغيير الهواء بل كنت ارمي
الى غرض آخر ايضاً وهو ان يفعل « اميل » بما يشاهده من المناظر
الخلوية وصورها المدهشة فتتمش لها في نفسه آثار حية فانه يقال ان اول
شيء بعث في نفس بايرون^(١) تبشير ولعه ولهجه بالشعر انما هو منظر
ما يوجد في هضاب ايقوسيا من البحيرات وقمم الجبال ولست اعتقد ان
« اميل » سيكون بايرون عصره بل لا اجد شيئاً من الحق في التطلع الى
ذلك ولكني اتكدر واحزن ان رأيت من حيث هو انسان لا يتأثر بما هو
مسطور في صفحات الكون من جيد الشعر وبديعه

قد وهمت فيما علقته على هذا السفر القصير من الامل الكثير في

(١) بايرون هو اللورد بايرون الشاعر الانكليزي مؤلف القصص الكثيرة

التي منها قصة الغلام هارولد وقصة الدون جوان ولد في سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

تنبه القوى الحاسة في « اميل » وها أنا ذه اعترف لك بخطأي صاغرة اذ
قد تبين لي اني تمجنت في هذا الامل فاني رأيت لا يشوقه الا النظر الى
الجزئيات واستطلاع وقائع الخلوات وهو من حداثة السن بحيث يصعب
عليه ادراك الاشياء في مجملها ومجموعها

ارى ان الطريقة المثلى في تنبيه الاطفال وبث روح الملاحظة في
نفوسهم ان لا تطلب منهم الملاحظة ولا يحملون عليها وقد سرت على هذه
الطريقة في سياستي « لاميل » فلم أشد عنها الا مرة واحدة . ذلك اننا
كنا في راس ليزارد^(١) وما اكثر عجائبه وان اردت تخيلها فمثل لنفسك
صخوراً هائلة على جميع الاشكال بعضها قائم وبعضها ساقط وشيء منها
متصل وآخر منفصل يهيج بينها البحر ويصطبغ ومنها ما نغمره البحر
فطوق جيده بقلادة من الزبد ولم يبد منه سوى رأس مخروطي امس
مصقول لا تفتأ الامواج تغسله ثم تصور ان بصرك يتبع من بعيد خط
السواحل فيرى ما يتخللها من نقطة الى اخرى من الصدوع العظيمة والوهاد
والمغارات المظلمة فاذا وقف الانسان وسط هذه المشاهد الكبرى كانت
حيرته في اختيار المكان الذي يشرف منه عليها . وقفت انا و « اميل » تجاه
(كينانس كوف) وهو احد الخليج التي يرى فيها البحر اجمل ما يكون وسط
الاطلال وقطع الصخور واخذت بيده ثم قلت له انظر الى هذا المكان
نظراً بايقاً وانقشه في حافظتك فلعلك لن ترى هذا المنظر بعد اليوم

كأنني بك تقول هل القوة الذاكرة مما يأمر بأمرنا فنأمرها بالحفظ
والذكر ؟ فأجيبك بأن لي بعض الحق ان اعتقد هذا اذا رجعت الى مادلتني

(١) هوراس من رؤس سواحل انكلترا في الطرف الجنوبي الغربي لقومته كورنواي

عليه تجربتي . ذلك اني ايام كنت فيما يقارب سن « اميل » سافر والداي الى مقاطعة اوقرنى^(١) واخذاني معها وفي يوم من ايام اقامتنا هناك صعدنا على احدى شفاف الجبال المسمى مندور وهناك نشدني الله والذي جاهراً بصوته ان لا انسى ما كنت اشاهده في تلك الساعة ما دمت حية ولا اراك الا سائلي عن نتيجة هذا الاقسام فاعلم ان جميع ما كان ينبسط امام ناظري في ذلك الوقت من المشاهد المهدقة بي وهي مشاهد الجبال والربى والوديان لا يزال مرسوماً في لوح ذاكرتي ومن هذا تعرف السبب الذي حملني على اتباع هذه الطريقة مع « اميل » نعم ان والدي قد اوصاني بعد هذه المرة بحفظ منظر آخر لا اذكره الآن فلم يجد ذلك شيئاً في الحفظ . وأنا استنتج من ذلك انه اذا تيسر في وقت ما ان يكون للعربي شيء من السلطان على حافظة الاطفال فان هذا السلطان من الأمور التي لا ينبغي الافراط في استعمالها

اذا وكل « اميل » نفسه كان دهشه بالاشياء التي يراها اكثر من اعجابها بها وهذا مما يحملني على اعتقاد انه لا بد في رؤية الامور على حقيقتها كمال الرؤية من شيء من الخيال خذ لذلك مثلاً وهو ان الطفل لا يعرف من البحر سوى دائرة الافق التي يحويها بصره وهي دائرة ضيقة بالنسبة للواقع فان حجاب المسافات يحول بينه وبين ما وراءها من بقية البحر فاذا كان الشاعر يفنى عن شهوده وترتفع نفسه اذا وقف امام مشهد المياه الجليل فذلك لانه ينظر بفكره الى ما وراء الافق من امتداد المحيط فانه متى

(١) مقاطعة اوقرنى هي اقليم قديم من اقليم فرنسا قاعدته كليرمونت فيراند

الفت منه ومن جزء من الهوت لوار والكروز مقاطعتا كانتال وبوى دودوم

اتفك ساعة من ربة عجز الشاعر الظاهرة تتسع في خياله حدود العالم المشهود فيضيف الى هذه البقعة المائية المضطربة التي لا يرى منها الا جزأ حقيقياً مهما كانت دقة لبصره صورة عدم التناهي والجلال وكلاهما من مدركات العقل لا دخل للحس فيهما وبالجملة فانه يرى الجلال والمظم في ماهية البحر ومعناه الذهني لا في صورته المرئية

ان خلو نفس « اميل » من ملكة التفكير التي لا بد ان تظهر فيه بتقدمه في السن يكشف له سر عدم اكتشافه بما يراه من مناظر الكون بل تقليده غيره في الاعجاب بها كما يبين لي من انبعاث شوقه الى بعض جزئيات ما كانت تخطر ببالي مطلقاً ولهجة بها لهجاً شديداً ذلك ان معظم الصخور التي يتكون منها رأس اليزارد ولندس اند (طرف الأرض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها كأنه يخاطب الخيال ويوقظه نيريك الدليل الحرثيت منها صور العمود وعرين الأسد والمطبخ والمنافع والمقالة والقرس ورأس الدكتور جونسن ووجه الدكتور مسنتاكن وغيرها فمن هذه الاسماء ما ينطبق ولا شك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها او بعدها من الحقيقة غير ان منها أيضاً ما هو مبني على وجود وجوه شبه ظاهرة لايمان بين مسميته الاصلية وبين تلك الصخور التي وضع لها ومن المحتمل ان تكون هذه الألعاب الكونية والصور الاتفاقيه والحجارة التي تمثل حياة الانسان او شكل شيء من الاشياء مع عدم نحتها بالمنحوتات هي التي بعثت في نفوس الأولين فكرة صناعة التماثيل ومهما كان اصل هذه الصناعة فان هذا الفن القطاري الاضطرابي الذي نقشته على الصوان يد الخالق القادر هو من التراب غير المألوفة التي هاجت شوق « اميل » الى معرفتها فانه كان يجتهد من نفسه

في ادراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الاشياء المعروفة له تمام المعرفة من وجوه الشبه التي لم تقرب ايضاً (كما تدل عليه اسماء تلك القطع) عن فكر صيادي السواحل السذج البسلاء .

من عهد ان رأيت جميع النموذجات الاصلية لفن العمارة ظاهرة في الفارات وسلاسل الصخور لم يسهني الا الارتياح في ان هذا الفن من مخترعات الانسان . ذلك لانك تجد فيها اصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبايك الطويلة المقبوة والعماد وغيرها من الاشكال الكثيرة فليس على الخيال الا ان يتوجه الى هذه الكتل الصخرية المتراكمة حتى يميز النظر من بينها مثلاً لمبادئ عتيقة وصفوفاً من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة وزخرفاً زمزياً ووحوشاً خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصاً مستقلة

انى على كوني لست من العلماء ولا من الاثريين كان بودي ان اعلم « اميل » في هذه الفرصة الجميلة بان التي في ذهنه معنى للآثار السلتية^(١) التي لا تخلو منها بعض جهات كورنواي واكثرها شيوعاً هو كما تعلم الدوائر القيسيية^(٢) والاحجار الطويلة القائمة في الارض على قواعدها كالمسلات والرؤس الصوانية الطبيعية التي صارت بعد عمل صناعي قليل هي الحصون الاولى للبلاد تحميها من اصوص البحر ولقد كان اشد هذه الآثار استمالة لى مدرج بيدين في رأس انزارد

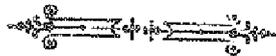
(١) السلتية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد

الفول وشمال ايطاليا وبريطانيا العظمى وايرلاندا (٢) نسبة الى القيسيين لانهم هم الذين كانوا يختصين بهذه الدوائر فلا توجد في غير محالهم

ومما يحمل على الظن بان يد الانساذهى التى نحتت هذا المدرج فى الصخر ما يشاهد فى بعض ارجائه من آثار اعمال تلك اليد القطرية التى عا نصفها كروور المصور وما نبت من الاعشاب الدقيقة على سطح الصخور ومن الاقوال المروية فى شأن ذلك المدرج ان الدوائر العظيمة الناتئة فى سمك الحجر كانت فيما عبر من الزمن صفوف درجات وان السات قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحنى خطته يد القطرة ووهدة يزيد البحر فى قاعها فجمعوها مسرحاً لا بصار النظار وعمالوا لجمعهم حولها . اذا صحت هذه الرواية قلت شعري ما ذا كان المنظر الذى كان يحشر الناس له فى هذا المكان ؟ ان كان ذلك هو الكون وعظمه فانه مشهد جدير باثارة وجدان الانحباب والاكبار خصوصاً فى هذه البقعة ولكنى أرجح ان ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهضة على سطح الامواج تجاه المدرج يقال ان القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقرايين وتلك شعائر اقل ما فيها العظم والجلال

يوجد ايضاً فى هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الاجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الخننج الأدكن المحزن فيورث رائتها النم والخوف ولكن أنى « لاميل » ان يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهى خلو من اثر صناعة النقش وعجوبة التاريخ وكيف يرجى منه الاهتمام بها ؛ على انى ارى ان نفسه قد انفلتت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوماً من الايام وانى أستند فى هذا الامر على امر صبيانى جداً غير ان كل شىء فى عالم الطفولية هو اكبر مما يظن به ودونك قصة هذا الامر :

كان يوم ١١ يونيه عيد ميلاد « اميل » فاراد ان يشهر هذا اليوم
المظيم بمأدبة خفيفة موافاة لما تقضي به عادة اهل البلد الذي نسكنه وفوق
ذلك فانه في هذا العيد قد عمد الى اختراع افتحره افتحاراً فقد اخذ بثوبى
وسار بي الى بستان فرأيت فيه وأنا في غاية الدهش كوماً من الاحجار
المتوسطة في الحجم مرتبة ومرصوفاً بعضها فوق بعض بنوع من المذق
والصناعة وعددها فوجدتها سبعة فطلعت من ذلك انه قد استفاد من
مدرسة قدماء السلك فانه لما فهم من الآثار التي زرناها على طول الساحل
انها اقيمت تذكراً لحادثة من الحوادث طبق ما رآه على نفسه فاصبح كما
ترى وله ان يقول ما قاله هوراس^(١) من قبله وهو « قد رفعت لنفسي أرواً »
على انى أسائل نفسي لماذا يسمى سن « اميل » بسن التمييز والتعقل ؟
فليت شمري أى شىء يتعقله الطفل فى السابعة من عمره ؟ لا اراه يتصور
الجزئيات فانه لم يعر من الزمن ما يكفيه لتصورها ولا يدرك الكليات
فانه يجب لادراك هذه ان يكون العقل قد وصل الى حد معلوم من الرشد
وانى اذا حكمت بمقتضى ما أدتني اليه تجربتى واختبارى اقول ان « اميل »
لا يزال اكثر انبعاثاً الى العلم بالاشياء منه الى الحكم عليها فالذى يهيمه
ويشغله انما هو كينيات الموجودات الظاهرة وبعض دلائل الفكر
وأماراته وسأين لك مرادى بمثل آخذه من ضروب تسلينا فانتظره فى
المكتوب الآتى . اه



(١) هوراس هو شاعر لاتينى شهير ولد فى سنة ٦٨ ومات فى سنة ٨ فى م